معارف القرآن
الانسان في القرآن

ـ القسم الثاني ـ

السيد محمود الهاشمي

أورد القائلون بأن خلقة آدم (ع) كانت تطورية وليست دفعية، بعض الآيات القرآنية ليستدلوا بها على ما ذهبوا إليه، من خلال ما توهموه من ايحاء تلك الآيات إلى كون آدم (ع) قد خلق خلقاً تطورياً طبيعياً لا دفعياً، وسنورد الآيات مع الرد عليها :

الأولى : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صَوّرْناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾[1] .

فقد استدل هؤلاء بالآية بأن هناك خلقاً قبل آدم (ع)، والضمير في خلقناكم عائد على بني الإنسان، وبعد الخلق والتصوير اختير آدم ليسجد له الملائكة، لانه كان ارفع مستوى عن سائر المخلوقين على شاكلته .

وهذا الاستدلال واضح الضعف، لأن المراد ليس ما يصوره أصحاب هذه النظرية، بل أن المراد أن خلقة آدم (ع) كانت على ثلاث مراحل :

مرحلة خلقة المادة الأولية ، ثم مرحلة التصوير ، ثم مرحلة الاستخلاف وهي مرحلة نفخ الروح وجَعْلها قادرة على تحمل الأمانة والخلافة الربانية ، وهي المرحلة التي أمر الملائكة فيها بالسجود لآدم (ع) ، فبقرينة : (ثم صورناكم) يستدل على عدم وجود خلق كامل ، وإلا فلا داعي ولا معنى للتصوير ، فالخلق لا بد وان يكون من مادة وصورة ، والتصوير لا يكون بعد انجاز الخلق واكماله ، هذا اضافة إلى أن ضمير (خلقناكم) ينفي هذا المعنى ، إذ لو كان النظر إلى أن أشباه آدم خلقوا قبله ، وكان آدم فرداً متطوراً منهم ، كان لا بد وان يقول (خلقناهم) ، لأن الموجودين اليوم من جنس متميز عن ذلك الجنس على أقل تقدير ، ولا يصح هذا التعبير إلا إذا كنا نحن وأولئك من جنس واحد .

والواضح أن المراد هو بيان مراحل الخلق لنفس آدم (ع) ، وهو ما ينسجم أيضاً والآية ﴿ كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[٢] ، فالآية إذاً تكون دليلاً على عكس ما ذهب إليه القائلون بخلقة آدم التطورية بحكم القرينتين السابقتين .

الثانية : ﴿ إنا خَلَقْنا الإنسان من نطفة أمْشَاج . . . ﴾[٣] .

قد يتصور لأول وهلة ، ان نظرية التطور الطبيعي في خلق الإنسان تشمل حتى خلقة آدم (ع) ، بدعوى ان ظاهر الآية هو الاطلاق والعموم ، ومقتضاهما يؤكد ذلك ، فقد يكون آدم (ع) من نطفة كائن حي لا يسمى انساناً وهو من نطفة علي أي حال .

وهذا الاستدلال عير صحيح ، لأن اللام في (الانسان) ليست للاستغراق وإنما للجنس ، فجنس الإنسان مخلوق من نطفة حسب طبيعته ، وهذا لا ينافي كون المبدأ الأول غير مخلوق من النطفة ، لأن النظر هنا ليس للمبدأ الأول ، وإنما إلى النشأة التي توالد منها الإنسان بعد الفراغ من خلقة المبدأ الأول ، فمبدأ الخلقة لا بد وأن يفترض فيه عدم كونه من نطفة ، وإلا استلزم ذلك

التسلسل ، سواء كان ذلك لآدم ، أو لحيوان آخر قبله حتى يصل إلى مخلوق ليس مخلوقاً من نطفة .

والواضح أن المنظور في الآية ليس الاستيعاب لمبدأ الخلقة وما بعده ، وإنما للخلقة البشرية الطبيعية ، وقد قسمنا سابقاً الآيات إلى قسمين بعضها ينظر إلى خلقة مبدأ الإنسان وبعضها الآخر إلى خلقة الإنسان الخاص (جنس الإنسان) ، والآيات السابقة هي من الآيات التي تتحدث عن خلقة جنس الإنسان[٤] ، ومما يؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه الآية ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال . . . ﴾[٥] التي تؤكد أن عيسى (ع) لم يخلق من نطفة رغم كونه انساناً .

الثالثة : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾[٦] .

استدل القائلون بخلقة آدم (ع) التطورية على ما ذهبوا إليه بهذه الآية ، اضافة إلى الآيتين السابقتين ، وقد قالوا بأن معنى الاصطفاء هو الانتخاب والانتقاء فلا بد من وجود (عالمين) في زمان آدم (ع) اصطفي منهم كما اصطفي نوح وآل إبراهيم وآل عمران على من كان موجوداً في زمانهم من الناس، فمقتضى السياق يدلل على وجود اناس اصطفى الله سبحانه آدم (ع) من بينهم ، فهو يمثل طفرة في تطور الجنس البشري أو ما دون البشري الذي كان موجوداً في تلك المرحلة التاريخية لتميزه عن غيره بالإعداد التكويني الالهي .

وهذا الاستدلال واضح البطلان ، لأن الآية المباركة أكدت ان الاصطفاء كان (على العالمين) ، ولم تقل (من العالمين) ، فقد يتوهم المعنى الذي ذهبوا إليه لو كان الاصطفاء من العالمين ولكن الاصطفاء هنا جاء على العالمين وهو اصطفاء معنوي لا مادي بقرينة (على) ، على أن المراد من العالمين كل البشرية من مبدئها إلى منتهاها ، فهؤلاء امتازوا على العالمين بدرجة

عالية من القرب والكمال والإرتباط بالله ، وهذه السلسلة تشمل أئمة أهل البيت (ع) الذين هم من آل إبراهيم (ع) .

وهكذا يتضح أن خلقة آدم (ع) كانت دفعية بدلالة الآيات القرآنية في هذا الصدد .

والقرآن يطرح مرحلية في خلقة آدم (ع) بمعنى خاص ، فالآية الكريمة : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾[٧] تشير إلى ثلاث مراحل لخلق الإنسان ، وهي خلقة أصل المادة ثم التصوير ثم نفخ الروح الربانية التي جعلت الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات وهي مرحلة الإستخلاف في الأرض ، وهي النشأة الأخرى التي أشارت إليها الآية الكريمة : ﴿ **ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ ، والقرآن طرح مرحلية في خلقة آدم (ع) ليست هي مرحلية التكامل والتطور الطبيعي للإنسان المعاصر ، وقد وردت هذه المرحلية في أكثر من آية ، والقرآن الكريم لم يتوسع في هذا الصدد لكونه ليس كتاب فلسفة ليشرح القضايا باللغة الفلسفية ، وإنما أشار إليها مجرد اشارات ، خصوصاً وأن هذه القضايا غير قابلة للفهم العام ، بل بعض مراحلها غير قابلة للفهم أصلاً لكون الإنسان قاصراً عن استيعاب كنه بعض الأمور المربوطة بعالم وشؤون الله سبحانه ، وإنما يلتقط اشارات ورموزاً واشباحاً من تلك الأمور .

والجدير بالذكر هنا أن التثليث الذي نستفيده من الآية الكريمة ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ ليس مخصوصاً بآدم (ع) وإن كان فيه أوضح لكونه مجرداً ، فهو موجود في قانون التناسل ولكن بشكل معقد ومختزل من خلال قانون التوالد ، فتوجد خلقة للمادة من التراب الذي هو مادة النطفة ، ثم التصوير له داخل رحم أمه وانتقاله من مادة لا عضوية حتى يصبح مادةً عضوية ، انساناً سويا صاحب تلك الصورة النوعية الخاصة ثم يعقب تلك المرحلة مرحلة الخلق الآخر وهي مرحلة نفخ الروح الالهية التي

تؤهله لأن يكون متميزاً عن سائر الكائنات واهلاً لسجود الملائكة له ، فقد اختزلت المراحل الثلاث في خلقة آدم (ع) لتودع في نسله بالشكل المتعارف من الصيغة التطورية لخلقة الانسان من التراب ثم النطفة ثم نفخ الروح فيه .

وبهذا يمكن أن يكون الخطاب في الآية (خلقناكم) عاماً لكل انسان ولا يقتصر على خلقة آدم (ع) مع فرض الاختلاف في كيفية تطبيق المرحلية . وأصل المرحلية بأدوارها الثلاثة مشتركة ولكن انطباقها مختلف في الخلقتين ، وهذا المعنى يمكن استظهاره من نفس سياق الآية ، فالسجود كان لآدم (ع) وحده ولم يكن لغيره ، ولو كان المقصود بـ (خلقناكم) آدم (ع) وحده لكانت تتمة الآية منسجمة مع هذا الجمع ، كأن يكون القول ﴿ **ثم قلنا للملائكة اسجدوا** ﴾ دون ذكر لآدم ، كما هو الحال في صدر الآية ، فالخطاب في صدر الآية عام وفي تتمتها خاص لأن السجود لم يكن لأحد سوى آدم (ع) .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً في الآيات الكريمة : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سوّاه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾[٨] ، فيمكن أن نرجع الضمير في (سوّاه) إلى آدم (ع) لأنه مخلوق من طين : ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ ، كما يمكن أن نرجع الضمير إلى جنس الإنسان ، وظاهر الآية يؤكد المعنى الثاني بعودة الضمير إلى جنس الإنسان حيث لم يذكر اسم لآدم (ع) فيما يسبقها من آيات .

وتختص المرحلة الثالثة من الخلق بالله سبحانه ، فإن النفخ منسوب إليه سبحانه ﴿ **نفخت فيه من روحي** ﴾ . وقد تكون المرحلة الأولى والثانية من الخلق بالتسبيب من خلال أمره للملائكة وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى : ﴿ **قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي** ﴾[٩] .

ونظراً لعدم تطرق القرآن الكريم لمراحل خلقة آدم (ع) بأكثر من اشارات إلى مرحلة خلقة المادة الأولية من طين لازب أو من حمأ مسنون ، ثم مرحلة

التصوير والتسوية وايداع الفصول والصور النوعية التي لا بد منها للإنسان كالحركة والنمو والنطق والتي تميز مادة عن أخرى ، ثم مرحلة نفخ الروح .

والواقع والمحتوى الحقيقي لهذه المراحل لا يمكن استفادته من الآيات ، فالذي تدلل عليه الآيات هو وجود تلك المراحل ، وظاهر العطف بـ (ثم) التي تفيد التراخي يؤكد وجود فاصل زمني بين كل مرحلة والتي تعقبها ، ولم تشر الآيات لأكثر من هذا المقدار . وتأتي الروايات الكثيرة المتعرضة لكيفية الخلق ، والآراء والنظريات الفلسفية والعلمية في تحديد ما يمكن تحديده من معالم تلك المراحل ، وواضح أن هذه التفاصيل لا يمكن التعويل عليها إلا إذا تمت بروايات معتبرة وإلا فانها تبقى مجرد نظريات واحتمالات .

وقد ذكر أمير المؤمنين (ع) في خطبة له كيفية خلقة آدم (ع) قائلاً : « ثم جمع سبحانه من حَزْنِ[١٠] الأرض وسَهْلِها ، وعذبها وسَبْخِها[١١] ، تربةً سنَّها[١٢] بالماء حتى خَلَصَتْ ، ولاَطَها[١٣] بالبلَّة[١٤] حتى لَزَبَتْ[١٥] ، فجَبَلَ منها صورةً ذاتَ أحناءٍ[١٦] ووُصول ، وأعضاءٍ وقُصول ، أجْمَدها حَتى آستَمسَكَتْ ، وأصْلَدَها[١٧] حتى صَلَصَتْ[١٨] ، لِوقتٍ معدود ، وأمدٍ معلوم ، ثم نفخَ فيها من روحه ، فَمَثُلَت[١٩] انساناً ذا أذهان يُجِيلُها . وفِكَرٍ يتصرفُ بها ، وجوارحَ يَخْتَدِمُها[٢٠] ، وأدواتٍ يقلِّبها ، ومعرفةٍ يفرق بها بين الحق والباطل ، والأذواق والمشام ، والألوان والأجناس ، معجوناً بطينة الألوانِ المختلفة ، والأشباه المؤتفكة ، والأضداد المتعادية ، والأخلاطِ المتباينة ، من الحَرِ والبرد ، والبَلَّة والجمود »[٢١] .

والمراد من جمع الله سبحانه لقبضات شتى من الأرض هو الكناية والإشارة إلى النوازع المختلفة من الخير والشر المودعة في كيان الإنسان ، فهو معجون ومركب من الأتربة المختلفة التي تنعكس بشكل نزعات وأمزجة مادية مختلفة بعضها خيرة وأخرى شريرة ، وميول ورغبات شتى منها نحو الفضيلة وأخرى نحو الرذيلة ، قوة في جانب وضعف في جانب آخر .

والروايات في هذا الصدد متعددة وليست متطابقة وفيها معان مختلفة ، ولا ينبغي أن تؤخذ بحرفية ما فيها لكونها تتعرض لشرح حقائق غير قابلة للإدراك الكامل ، فتضطر إلى التشبيه والتمثيل والكناية كما في آيات القرآن الكريم التي تكتفي بالإستعارات والكنايات لتقريب المعنى ، فبعض المعاني غير قابلة للإدراك والتشبيه ككيفية صنع الملائكة للصورة النوعية للمادة الأولية ، وهذا المعنى لا يمكن تصوره إلا بتصورٍ على سنخِ وطراز عالم المادة ، لذلك لا يمكننا إلا الخروج بفهم إجمالي ورمزي عن هذا العالم .

عالم الروح

نتناول في هذا الجانب من البحث وصفاً لماهية الروح ومحاولة لفهم بعض أحوالها التي استعرضها القرآن الكريم ، اضافة إلى تفسير لكيفية التركيب بين المرحلتين الأوليتين من مراحل الخلق والمرحلة الثالثة (مرحلة نفخ الروح) .

ورد لفظ الروح في القرآن الكريم بمعنى المَلَك وهو جبرئيل (ع)[٢٢] ، كما ورد هذا اللفظ بمعنى الحُكم والأمر الالهي[٢٣] ، وقد نسب جملة من المفسرين الروح إلى معنىً جامع هو عالم الأمر ، فالروح هي من أمر الله ، فهناك عالمان في الوجود ، عالم الخلق والشهود وهو عالم المادة بما فيها من خصائص وصور نوعية ، وعالم الأمر وهو عالم الغيب والمجردات ، ولا يبعد أن يكون هذا المعنى قد استفيد من الآية الكريمة : ﴿ **ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي** ﴾[٢٤] ، فالروح حقيقة أمرية وليست شهودية ، حقيقة مجردة[٢٥] لأنها ليست لها أبعاد وخصائص الجسم القاصر ، وهي مربوطة كذلك بالمجرد المطلق وهو الله سبحانه .

ويستفاد من جملةٍ من الآيات أن الروح تبقى مجردة بعد وفاة الإنسان : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾[٢٦] وهذا يعني أن الروح تتجرد من المادة وتبقى لها استمرارية ، كما يتأكد معنى أن الروح كانت مجردة حتى في الجسم ولكنها مركبة وليست متقومة بالجسم ، من سياق الآية (يتوفى) ففيه فرض

استرجاع شيء قد أعطي سابقاً ، فيفهم من الآيات أن الروح شيء من عالم الأمر تتركب مع مادة الإنسان ثم ترجع إلى بارئها في مسيرة إما تصاعدية أو تسافلية ، فإما أن يتصاعد في هذه المسيرة فيصبح ذا مقامات قريبة وكبيرة ، بحيث إنه برجوعه إلى الله سبحانه فانه يمثل قمة ما يمكن أن يمثله كائن من المخلوقات في مقام عبودية وطاعة الله ، أو انه ينتكس في مسيرة تنازلية كما في العاصين لأمر الله .

فحقيقة الإنسان وجوهره هي هذه الروح ، وبها يبقى الإنسان انساناً مهما اختلفت أجزاؤه لأن حقيقته وقوامه بهذا الجانب لا بجانبه المادي ، لهذا كان لخطاب للنفس المطمئنة ﴿ ارجعي إلى ربك ﴾[٢٧] ، وروح الإنسان هي التي تجعله نفس ذلك الإنسان يوم القيامة لأن روحه واحدة باقية في حين قد تختلف أجزاء التراب التي يتركب منها جسمه . (هذا بناء على أن المعاد الجسماني هو من نوع نفس النشأة في هذا العالم) .

المستفاد من الآيات القرآنية تصوير للروح على انها حقيقة الهية مربوطة بعالم الأمر تحل بالجسم المادي للإنسان ، دون التعرض إلى حقيقة الروح أو طبيعة التركيب بين المادة والروح والتفصيل في تعريف المجرد ، وعدم تعرض القرآن لهذه الخصوصيات إما لأنها غير قابلة للفهم الكامل حتى للعلماء رغم كل ما يذكرونه ويحللونه في هذا المجال فلا يبعد أن تكون كل تحليلاتهم أشبه بالرموز والتعاريف الأسمية لا الحقيقية ، لأن حقيقة عالم الغيب لا يمكن تعريفها تعريفاً علمياً بالمعنى المنطقي للتعريف ، لأن العلم الحضوري به ممكن دون العلم الحصولي ، أو أن عدم التعرض لمثل هذه الخصوصيات آتٍ من كون القرآن ليس كتاباً يريد الدخول في المصطلحات الفلسفية والعلمية ، وإنما يكتفي بالإشارات وإيجاد الاذعان واليقين بأصل المسألة (عالم الأمر) والاستفادة من هذا الاذعان في هداية الإنسان وتوضيح الطريق الصحيح له لسيره في طريق التكامل والسمو .

وخلاصة القول في ماهية الروح ، انها هي جوهر الإنسانية وميزة الإنسان على سائر الكائنات والمخلوقات وهي حقيقة من عالم الأمر وان هذه الروح تتجرد عن الجسم وتسترجع إلى عالم الأمر وان وحده الإنسان بوحدة روحه لا بوحدة أجزاء جسمه ، فحتى لو تبدلت أجزاء جسمه[٢٨] فانه يبقى هو ذلك الإنسان ، فالوحدة التي حفظت الوجودين وجعلتهما وجوداً واحداً إنما هي وحدة الروح وبها استحق الإنسان مقام الخلافة الالهية وهي ميزة الإنسان وشرفه على باقي الكائنات (على الرغم من امتيازه في جانبه المادي أيضاً) ، فلا بد من التوجه إلى هذه الحقيقة وعدم الغفلة عنها والتجرد عن الماديات التي تشد الإنسان إلى الأرض وخصائص عالم النشأة المادية ، وتمنعه من الإستفادة من تلك الجوهرة الثمينة فيكون حاله حال موجودات عالم الخلق المادي فينطبق عليه وصف الآية الكريمة : ﴿ **ان هم إلا كالأنعام بل هم اضل سبيلا** ﴾[٢٩] ، والقرآن يؤكد في مواضع كثيرة على ضرورة الإستفادة من هذه النعمة الالهية التي تفتح للإنسان آفاقاً واسعة للعروج إلى مدارج السمو والكمال ، وعدم الركون إلى الأرض والتمسك بخصوصيات وحيثيات عالم الخلق المادي ، فان هذا الركون يؤدي إلى الغفلة عن تلك الحقيقة والإنتهاء بالإنسان إلى الإنتكاس والتسافل والخسران عندما ترجع روحه إلى بارئها .

في مجال البحث عن كيفية التركيب بين الجسم المادي والروح هناك نظريتان توضحان طبيعة هذا التركيب هما :

النظرية الأولى : وهي المنسوبة إلى افلاطون وفيها يقول : بأن حقيقة الإنسان هي كونه روحاني الحدوث وجسماني التركيب وروحاني البقاء ، فمبدأ الإنسان روحاني حيث تنزل الروح من عالم الذر إلى عالم المادة وتلتحم بشكل من الأشكال مع المادة العضوية وغير العضوية ثم تُستوفى بالممات وترجع إلى ربها .

وعلى الرغم من كون هذه النظرية معقولة وتتطابق مع بعض الآيات والروايات إلا انها واجهت إشكالاً أساسياً من قبل الفلاسفة الإسلاميين ، وهو

كيفية تفسير هبوط الروح من عالم المجردات الذي هو عالم الكمال إلى عالم المادة الذي هو عالم انزل منه .

النظرية الثانية : وهي المنسوبة إلى صدر المتألهين الشيرازي والمعروفة بنظرية الحركة الجوهرية العامة ، وهي أن الإنسان مادي الحدوث وروحاني البقاء ، فالإنسان على الرغم من كونه مادياً في الحدوث فان بقاءه بروحه ، فلا انتكاسة هناك بل صعود وسير نحو الكمال ، فالله سبحانه وبعناية منه تتطور المادة العضوية للإنسان لتصبح نشأة أخرى ﴿ **ثم انشأناه خلقاً آخر** ﴾[٣٠] فالخلق الروحاني انشاء من المادة بأمر من الله سبحانه .

وخلاصة البحث في تفسير خلقة الإنسان وما يتقضيه هذا التفسير من نتائج وخصائص يمتاز بها عن غيره من المخلوقات ، يمكن اجمالها في النقاط الثمان التالية :

١ ـ إن الله سبحانه هو خالق الإنسان ﴿ **خلق الإنسان ، علّمه البيان** ﴾[٣١] .

٢ ـ إن خلقة الإنسان كانت من الأرض (الماء والطين والخصائص المادية الموجودة في الأرض) ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾[٣٢] .

٣ ـ إن خلقة الإنسان لها ثلاث مراحل هي : خلقة المادة الأولية من الأرض ثم تصويرها ثم انشاؤها خلقاً آخر بنفخ الروح فيها : ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾[٣٣] .

٤ ـ إن الإنسان كائن مسوى ومعدل من قبل الله سبحانه ، بحيث إنه قد أودع أدق وأشرف الخصائص العضوية التي أودعت في الكائنات الحية : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك** ﴾[٣٤] .

٥ ـ إن الإنسان كائن مزدوج ركّب فيه عنصرا الروح المجردة والجسم المادي ، ولا يوجد كائن له مثل هذا الامتزاج وبهذا المستوى ، فكائنات عالم

المادة فاقدة للروح المجردة بتلك المرتبة التي يمتلكها الإنسان ، وكذلك فالملائكة هي من سنخ عالم الأمر فقط ، ولعل سبب استغراب الملائكة في خلقة آدم (ع) والأمر بالسجود له آتٍ من كون الملائكة تمثل الخلقة الراقية والمرتبطة بعالم الأمر ، وآدم (ع) قد خلق من عنصر المادة الهابط في سلم الوجود : ﴿ **خالق بشراً من صلصال من حمأٍ مسنون** ﴾[٣٥] ، والإستغراب آتٍ من عدم درك الإزدواجية الموجودة عند الإنسان وامتلاكه لروح يمكن أن تكون فوق الروح التي تتميز بها الملائكة .

٦ ــ إن روح الإنسان تتميز على باقي الأرواح في عالم المجردات بانها قد أضيفت اضافة تشريفية وقربية إلى الله : ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾[٣٦] فلهذه الروح شرف القرب والامتياز على باقي الأرواح ، فالإنسان كائن متميز في جانبه المادي والروحي على مخلوقات عالم الشهود والأمر ، فنفس الأمر للملائكة بالسجود لآدم فيه دليل على ذلك التميز والإستعداد الموجود عند الإنسان ، إضافة إلى وصف الله سبحانه لخلقته للإنسان بالبركة ومباهاته بخلقته وكونه أحسن الخالقين : ﴿ **ثم انشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[٣٧] .

٧ ـ إن الإنسان على أساس ذلك الإستعداد الذي أودعه الله فيه فانه يتمتع بميزتين هما من ثمرات ذلك الإستعداد ، وهما : العلم أو المعرفة والإرادة ، فميزة العلم ، امتاز الإنسان بها عن سائر مخلوقات عالم الشهود والأمر : ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا انك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم باسمائهم . . .** ﴾[٣٨] ، وكذلك ميزة الإرادة والإختيار والإنتخاب فإنها تستفاد من تكليف آدم : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾[٣٩] ، فالتكليف لا يمكن إلا بكون المكلف إضافة إلى كونه واعياً ، كونه مريداً يمتلك حرية الإرادة والتصرف ، وكذلك يمكن استفادة كون آدم (ع) مريداً ومختاراً من الحوادث التي حدثت له في بداية خلقته كالعصيان : ﴿ **وعصى آدم**

ربه فغوى ﴾[٤٠] و ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما ﴾[٤١] فلا معنى للعصيان ان لم تكن هناك إرادة وتصميم ، فعديم الإرادة لا معنى لعدم وجدان عزم له وهو من باب الملكة وعدمها فلا يقال للجدار مثلاً إنه أعمى لأنه ليس من شأن الجدار أن يكون بصيراً .

٨ ـ إن الإزدواجية في الخلق التي يتمتع بها الإنسان يترتب عليها أن تصرفاته وسلوكه وتوجهاته واقعة في اطار هذه الدائرة ، فللإنسان ميول وغرائز ونزعات ورغبات هي من مقتضيات العنصر الأول وهو ترابية وأرضية الإنسان ، كما وان له تطلعات وإدراكات وميول وتوجهات وأحاسيس ومشاعر هي من مقتضيات الجانب الروحي للإنسان .

من هناك كانت للإنسان مظاهر تبدو متناقضة من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال ، ومن النقيض إلى النقيض ، فالإنسان باعتبار حالة الإرادة والإختيار التي يمتلكها يمكنه أن يتحرك في دائرة المادة من جهة وفي دائرة القرب والدنو من الله من جهة أخرى ، فهو يستطيع أن يخلد إلى الأرض ويكون ترابياً في توجهاته وبالتالي يصبح أخس الموجودات بانسجامه مع اقتضاءات ترابيته في ركونه إلى شهواته ونزواته المادية فيكون عندها كالحيوان اللاهث وراء ميوله وغرائزه ، بل اضل ، واما إذا ما اتجه إلى المقتضيات التي منشوءها الروح الالهية الموجودة في خلقته فإنه بإختياره هذا الطريق يمكن أن يسمو ويتقرب من الله بنحو لا تستطيع حتى أقرب الأرواح الملائكية (جبرئيل « ع ») أن تقترب أكثر كما قال جبرئيل (ع) (حينما رافق الرسول (ص) في معراجه إلى السماء) : لو دنوت أنملةً لاحترقت ، في حين صعد النبي (ص) إلى أعلى من تلك المرتبة من القرب من الله سبحانه : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[٤٢] .

ولولا هذه الإزدواجية لما تأهل الإنسان للتكامل والسمو ، فلو خلقت الروح الإنسانية من غير هذا المزج فلعلها لا تستطيع الوصول إلى تلك الكمالات والنتائج الالهية ، فضريبة الوصول إلى تلك الكمالات هي هذا

الإمتزاج وحالة الصراع بين اقتضاءات النشأة الترابية والنشأة الروحانية بين نوازع القرب والكمال والسمو ونوازع الركون إلى الأرض ومقتضياتها من غرائز وشهوات وميول ورغبات ، فلولا هذه الإزدواجية لكان للإنسان حد معين في السمو والقرب من الله كما في الملائكة .

فهذه المرتبة من الكمال الأعلى لا تأتي إلا من خلال الكدح إلى الله ، من هذه النشأة المادية إلى ذلك المقام المعنوي والقرب إلى الله ومن أجل لقائه : ﴿ **يا أيها الإنسان انك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه** ﴾(٤٣) ، ويوضح المقطع الذي أوردناه سابقاً من خطبة أمير المؤمنين (ع) ان كل اقتضاءات عالم النشأة الترابية كانت في القبضة التي خلق منها آدم (ع) ، وهي تنعكس على تصرفاته ووعيه وشعوره بشكل الإقتضاءات النفسانية والحيوانية في حياته ، فالميل إلى الطعام والمقام والجنس وغيرهما انعكاسات لتلك الإقتضاءات والحيثيات الموجودة في تلك القبضة التي خلق منها آدم (ع) .

وهذا الإنعكاس ليس بدرجة يفقد فيها الإنسان ارادته واختياره بل انه مزود بالإرادة إضافة إلى العلم ، فهو مختار في الإستجابة لمقتضيات عالم النشأة المادية مثل اختياره للإستجابة لمقتضيات عالم النشأة الروحانية .

البعد الثاني في الإنسان :

كان البحث في البعد السابق عن نظرية الخلقة ، عن الجانب التكويني والمادي للإنسان وخصائص هذا الجانب ، وبحثنا الآن يتناول الجانب والبعد المقامي والمعنوي لهذه الخلقة ، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بخلافة الإنسان .

معنى الخلافة :

للخلافة ثلاثة معان ، معنى لغوي ، ومعنى تشريعي ، وآخر فلسفي .

المعنى اللغوي :

المعنى اللغوي للخلافة مأخوذ من (خَلَفَ) فلان فلاناً ، قام بالأمر عنه ،

وسدَّ مَسَدَّه[٤٤] أي حلَّ محله وبعده، وهذا المعنى هو المراد في كل آيات الإستخلاف في القرآن الكريم (عدا آيتين سنتطرق إليهما لاحقاً) ومن هذه الآيات :

﴿ هو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾[٤٥] .

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾[٤٦] .

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾[٤٧] .

المعنى التشريعي :

المعنى التشريعي للخلافة اعطاء النيابة عن المستخِلف ـ بالكسر ـ تشريعاً واعتباراً فتكون تصرفاته القانونية نافذة كالأصل ، فهو مقام ومنزلة تعطى للخليفة من قبل الأصيل ، وقد ورد هذا المعنى في آيتين فقط من الآيات الواردة في موضوع الخلافة وهما :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة . . . ﴾[٤٨]

﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ﴾[٤٩] .

ومن المستبعد أن يكون المقصود في الآية الأولى جعل خلق بعد خلق آخر ، فان آدم (ع) هو مبدأ الخلقة ـ كما أشرنا إلى ذلك في أبحاث سابقة ـ ، والذي يدل على ذلك هو التفريع بالأمر بالسجود له ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ ، فبخلافته ستكون له مقامات تستحق السجود وإلا فمجرد الخلافة بمعناها اللغوي لا تحتاج ولا تستحق السجود ، وحينئذ لا بد وأن تكون الخلافة من نوع آخر وهي الخلافة بمعناها التشريعي أو التشريعي والفلسفي .

إضافة لذلك ، فإن الاثارات التي اثارتها الملائكة تدل على انهم فهموا من (الخلافة) معنى آخر غير المعنى اللغوي ولهذا كان استغرابهم وتساؤلهم عن كيفية جعله خليفة وفيه نوازع من الفساد والشر .

أما الآية الثانية فواضحة الدلالة على المعنى التشريعي للخلافة ، إذ أن الخطاب مخصوص بداود (ع) ، ولو كان لكل النسل البشري لأمكن حمل (الخلافة) على معناها اللغوي حيث كان ذلك النسل في زمان داود كلهم خلائف من قبلهم من البشر ، وأما إذا اختص بداود (ع) فلا معنى لهذا الإختصاص إلا إرادة معنىً آخر للخلافة .

وما يدل على ذلك أيضاً تتمة الآية : ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق** ﴾ ، والذي يدل على أن الحكم هو من شؤون الخلافة الممنوحة لداود (ع) ولكونه أعطي هذا المقام الخاص كان عليه أن يحكم بالحق والعدل في الأرض .

وواضح أن المعنى التشريعي للخلافة هو جعل الخليفة نائباً وقائماً مقام من له الولاية والسلطنة في الدائرة المحدودة لخلافته .

فهي اعطاء الولاية شرعاً لمن لم تكن له الولاية بالذات من قبل من له حق الولاية والحق بالتصرف بالذات ، فهي نيابة مناب الأصل في حدود الولاية فيكون نظر الخليفة وتصرفه نافذاً ـ بالتفويض والجعل ـ كنفوذ ولاية الأصل .

ودائرة الولاية التشريعية لها حدود ومراتب وهي حدود مشككة ، فقد تعطى ولاية بحدود التنفيذ أو القضاء العام أو القضاء بين اثنين أو الولاية على الأسرة ، أو اقامة الرسالة الالهية أو في حدود زمن معين أو كل الأزمان أو مكان معين أو كل الأماكن أو في حدود الأمور الإجتماعية العامة أو حتى في أخص خصوصيات الإنسان وفي كل أمر كبير أو صغير كما في الولاية الممنوحة للنبي (ص) في قوله تعالى : ﴿ **النبي أَوْلىٰ بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾[٥٠] ، فالنبي (ص) أَوْلىٰ بالفرد من نفسه (إذا فسرنا الآية بالولاية) وهي لا شك مرتبة عالية واسعة من الولاية .

كما يمكن أن تعطى الولاية بالتشريع وهي حق جعل الأحكام الشرعية كما أعطيت للنبي (ص) ، فقد فوض أمر تشريع جملة من التشريعات إلى النبي (ص) كتشريعه للركعتين الإضافيتين في الصلوات الرباعية ، وتحريم سائر

المسكرات غير الخمر ، وأكثر الحدود كانت من تشريعات النبي (ص) فوض أمر تشريعها إليه ، لا بوحي من الله ، وهناك تطبيقات كثيرة لذلك في الفقه الإسلامي إضافة إلى روايات تدل على أصل التفويض[٥١] في التشريع للنبي (ص) ومنه إلى الأئمة (ع) .

المعنى الفلسفي (العرفاني) :

وهو ما يطلق عليه بالولاية التكوينية أو الخلافة التكوينية أيضاً ، وفيها يكون الخليفة نائباً لله وخليفة له سبحانه وتعالى في ولايته التكوينية على الخلق .

فمن المفروغ عنه أن لله تعالى سلطة تشريعية على الخلق بجعل أوامر ونواهي وعقوبات وأحكام ، وسلطة تكوينية عليهم بالخلق والتصرف والتغيير والإدارة والإيجاد والإفناء .

وقد أعطى الله سبحانه خليفته القدرة التشريعية كما أعطاه القدرة التكوينية ولكن لا بمثل قدرته تلك القدرة المطلقة التي لا تتعقل في حق الممكن المحدود ، وإنما هي قطرة من بحر ، ورشح من محيط تلك القدرة التي لا تحد ولا تتصور .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

هذه القدرة التكوينية أيضاً لها مراتب كمراتب تلك التشريعية ، فلكل انسان مرتبة من هذه القدرة وأقلها على أعضاء جسمه وهي القدر المتيقن من القدرة ، وكذلك القدرة على التفكير والإنتخاب والإختيار والتغيير والتصرف وكل هذه ناشئة من قدرة الإنسان التكوينية لأنه تعالى خلقه قادراً ومتمكناً (خليفة من الناحية التكوينية) ، فغيَّر وجه الأرض وأوجد الحضارات والمظاهر الحضارية والعلوم وحرك التاريخ .

كل هذه الأمور لا يمكن تعقلها بحق الحيوانات فلماذا تتعقل بحق الإنسان لو لم تكن له تلك الخلافة التكوينية عن الله تعالى ، ولعل هناك مراتب أخرى لهذه القدرة لا زالت كامنة في هذا المخلوق وقد تبرز في المستقبل ، لأن كل

أبعاد هذا المخلوق غير مكشوفة أمامه بعد وكما قال الشاعر :

أتحسب انك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهناك مراتب من الخلافة التكوينية أعلى من هذه المراتب ولكنها مشروطة بشروط لا تتحقق إلا في الخلّص والأوحديين من الناس ، وهذا هو البحث الذي يعنون عادة بعنوان (الولاية التكوينية للأنبياء والأئمة (ع)

فقد يكون للإنسان قدرة في التصرف من الناحية التكوينية وبدرجة أكبر مما تسببه الأسباب الطبيعية وأعلى من القدرة التي يمتلكها غيره كتصرف عالم الغيب في عالم الشهادة وعالم الأمر في عالم الخلق ، تلك القدرة هي ذات الشبه بقدرة الله تعالى ، إذ من خلال الإرتباط بعالم الأمر الغيبي يمكن التصرف في العالم الشهودي ، وهذه هي الولاية التكوينية الإصطلاحية والتي قد يخلف خليفة الله عنه فيكون له مقدار منها كما في الأنبياء والأئمة وبعض الأولياء ، وهل هذه خاصة بهؤلاء الأنبياء والأئمة (ع) أم لها قانون ونظام وسنة بحيث ان كل من استطاع الوصول إلى تلك المرتبة من المعرفة الكاملة والتوحيد الكامل فانه ينال تلك المرتبة من الولاية التكوينية وتسخر له كائنات عالم الشهادة والمادة فيتصرف بها ذلك التصرف وفق ذلك الناموس والسنّة الخاصة ؟

وفي الإجابة لا تبعد الإستفادة من جملة من الآيات والأحاديث والروايات في أن لهذه الولاية سنة خاصة وانها ليست أمراً خاصاً بذلك المعنى وإنما هي من نتاج مرتبة من مراتب العلم والمعرفة .

فلهذا المخلوق قوة المعرفة والمنطق ، فإذا تنامت هذه القوة والمعرفة فقد تصل به إلى تلك المرتبة العالية من الولاية التكوينية .

ومن أمثلة هذه المرتبة آصف بن برخيا الذي تطرقت له الآيات الكريمة : ﴿ **قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾(٥٢) فهذا التصرف التكويني في عرش بلقيس تصرف في عالم التكوين بالولاية

التكوينية ولم يكن صادراً من نبي بل كان ممن عنده علم من الكتاب ، ومن هنا يتضح أن هذه المرتبة يمكن الوصول إليها وفق شروطها كما وصل إليها آصف بن برخيا .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه القدرة عرضية لا ذاتية ، وفيض من فيوضات القدرة الالهية المطلقة طبقاً للسنّة التي جعلها الله سبحانه وتعالى لها .

والخلاصة : أن المعنى الثالث للخلافة يقصد به أن يكون الإنسان خليفة لله تعالى تكوينياً في الخلق ، ولهذه الخلافة مراتب تشمل في أدنى مراتبها تصرف الإنسان بأعضائه والقدرة التكوينية التي يحصل عليها من خلال القدر المودع فيه من العلم والفكر والإختيار والإرادة وكل معلولات هذه الأمور ، وقد نكتشف في المستقبل مراتب أعلى من هذه المرتبة لكون الإنسان لم تنكشف أبعاده كلها بعد .

وهناك أساس وارضية لمراتب أعلى إذا استطاع الإستفادة من نظام هذه المراتب العليا وسننها وربّى نفسه للوصول إلى مراتب الأولياء والخلفاء لله في الأرض وإذ ذاك يستطيع أن يتصرف بمقدار أعلى من المقدار الطبيعي للولاية الممنوح لكل انسان .

وما المعاجز كلها في الواقع إلا تفريعات وتجسيدات لهذه الولاية كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وغيرها ، ولا اشكال في أن بعض مراتب الولاية التكوينية ممنوحة من الله تعالى بمنح خاصة لبعض الأولياء والمقربين ، ولكن هذا لا يمنع من وجود سنة وناموس ولو لبعض مراتب هذه الولاية على الأقل ، بحيث كل من يستطيع الوصول إلى ذلك النضج العلمي والتجرد الروحي وفق تلك السنن ومن خلال تكامله في عالم المعرفة والأمر سوف تكون ارادته واختياره مؤثرين في عالم الخلق والشهود أيضاً .

بعد هذه المقدمة نأتي إلى الآيتين من سورة (البقرة) وسورة (ص) ، فهل أن لفظة الخليفة كان المراد منها المعنى التشريعي فقط ؟ أم خصوص

المعنى التكويني ؟ أم المعنى التشريعي والتكويني معاً ؟

الواضح أن الآية الأولى تدل على أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الإنسان خليفة له ونائباً منابه ، ومقتضى هذا التعبير أنه جعله شبيهاً به وخليفة له في أرضه ، ومقتضى اطلاق الإستخلاف والتشابه يستدعي خلافة الإنسان لله في الجانبين معاً بحيث تتجلى به وباذن الله سبحانه كلتا السلطتين التشريعية والتكوينية وبشكلها المحدود وبمراتبها الخاصة ، فهي صالحة لأن تُحمل على مجموع المعنيين .

وربما يكون المناسب في الآية الثانية المعنى التشريعي للخلافة فقط لمقتضى سياق الآية ، فالمعنى هو أنك خليفتنا في الحكم ولأنك خليفتنا فلا بد من أن تحكم بالعدل .

إلا أن الآية الأولى واضحة في اطلاق الولاية في كلتا ناحيتيها التشريعية والتكوينية للإنسان ، فان شُكك في اطلاق الآية الثانية فلا ينبغي التشكيك في الأولى وعلى كل حال فان الخلافة ثابتة في كلتا الآيتين للأنبياء والأئمة (ع) .

وفي الفصل القادم سنرى هل أن الخلافة يمكن اطلاقها على بقية الناس ، أي أن الآية الأولى كانت تقصد نوع الإنسان أم خصوص آدم (ع) ؟ .

الهوامش

(١) سورة الأعراف ، آية ١١ .

(٢) سورة الأعراف ، آية ٢٧ .

(٣) سورة الانسان ، آية ٣ .

(٤) الواضح أن المهم في تلك الآيات هو التركيز على هوان الإنسان وضعفه وكونه مخلوقاً من ماء مهين لا يدعو بشكل من الأشكال إلى اغترار الإنسان وتكبره ، فالكرامة للإنسان لا تأتي من القيم والشؤون المادية وإنما كرامته بمعنوياته وأخلاقه واطاعته لله سبحانه .

(٥) سورة آل عمران ، آية ٥٩ .

(٦) سورة آل عمران ، آية ٣٣ .

(٧) سورة الأعراف ، آية ١١ .

(٨) سورة السجدة ، آية ٦ ـ ٩ .

(٩) سورة ص ، آية ٧٦ .

(١٠) حزن الأرض : وعرها .

(١١) سبخ الأرض : ما ملح منها .

(١٢) سن الماء : صبه .

(١٣) لاطها : خلطها وعجنها .

(١٤) البلة ـ بالفتح ـ : من البلل .

(١٥) لـزب : من باب نصر ، بمعنى التصق وثبت واشتد .

(١٦) الاحناء : جمع حِنو ـ بالكسر ـ وهو الجانب من البدن .

(١٧) اصلدها : جعلها صلبة ملساء متينة .

(١٨) صلصت : يبست حتى كانت تسمع لها صلصلة إذا هبت عليها الريح .

(١٩) مَثُلَ : ككرم وفتح : قام منتصبا .

(٢٠) يختدمها : يجعلها في خدمة مآربه .

(٢١) نهج البلاغة ، الخطبة الأولى ، صفة خلق آدم (ع) .

(٢٢) ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا ﴾ سورة النبأ ، آية ٣٨ .

(٢٣) ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ سورة الشورى ، آية ٥٢ .

(٢٤) سورة الاسراء ، آية ٨٥ .

(٢٥) المجرد هو الكائن الذي لا يحتاج إلى ما تحتاجه المادة أو الجسم من الخصائص التي تنشأ عن قصوره كالمكان والزمان والغذاء والطول والعرض والعمق وسائر الحيثيات التي تخص عالم الشهود ، فكل كائن لا يفتقر إلى هذه الحيثيات فهو مجرد .

(٢٦) سورة الزمر ، آية ٤٢ .

(٢٧) سورة الفجر ، آية ٢٧ .

(٢٨) يؤكد علماء (وظائف الأعضاء) ان خلايا جسم الإنسان تتبدل جميعها كل سبع سنوات .

(٢٩) سورة الفرقان ، آية ٤٤ .

(٣٠) سورة المؤمنون ، آية ١٤ .

(٣١) سورة الرحمن ، آية ٣ .

(٣٢) سسورة السجدة ، آية ٧ .

(٣٣) سورة الأعراف ، آية ١١ .

(٣٤) سورة الانفطار ، آية ٧ .

(٣٥) سورة الحجر ، آية ٢٨ .

(٣٦) سورة الحجر ، آية ٢٩ .
(٣٧) سورة المؤمنون ، آية ١٤ .
(٣٨) سورة البقرة ، آية ٣٣ .
(٣٩) سورة البقرة ، آية ٣٥ .
(٤٠) سورة طه ، آية ١٢١ .
(٤١) سورة طه ، آية ١١٥ .
(٤٢) سورة النجم ، آية ٩ .
(٤٣) سورة الانشقاق ، آية ٦ .
(٤٤) مفردات الراغب .
(٤٥) سورة الأنعام ، آية ١٦٥ .
(٤٦) سورة يونس ، آية ١٤ .
(٤٧) سورة الأعراف ، آية ٦٩ .
(٤٨) سورة البقرة ، آية ٣٠ .
(٤٩) سورة ص ، آية ٢٦ .
(٥٠) سورة الأحزاب ، آية ٦ .
(٥١) الكافي ، الجزء الثاني .
(٥٢) سورة النمل ، آية ٤٠ .

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

وقال الإمام علي بن أبي طالب (ع) :

الله الله في الجهاد بأموالكم وألسنتكم في سبيل الله .

الله الله في بيت ربكم يخلو منكم ما بقيتم ، فإنه أن ترك لم تناظروا .